المحاضرة الثالثة: نشوء وتطور الصحافة الاستقصائية

ظهرت الصحافة الاستقصائية **مطلع القرن العشرين**، بالتزامن مع ما يعرف **بالعصر التقدمي** إذ نجحت مجموعة من الصحفيين الذين عرفوا لاحقا باسم **المنقبين الاوائل أو الموكريكرز ،** في كشف الكثير من الانتهاكات والممارسات الخاطئة والفساد وسطوة الشركات الاحتكارية والخداع، التي نتجت عن التوسع الصناعي الذي امتدت سنواته من ١٨٨٠ حتى عام ١٩٢٠ لكن قبل هذا العصر، كانت ثمة تجارب مبكرة أشرها المؤرخون لنشوء الصحافة الاستقصائية يعود بعضها إلى ما قبل أكثر من ٢٠٠ عام من عهد الموكريكرز، كان من أبرزها تجربة الصحفي بنيامين هاريسون الذي تنسب اليه البواكير الأولى للصحافة الاستقصائية، فقد كشف هاريسون في ٢٥ ايلول سبتمبر ١٦٩٠ عن الانتهاكات التي ارتكبها الأمريكيون المتحالفون مع بريطانيا آنذاك قبل نشوء (الولايات المتحدة الامريكية) ضد الأسرى الفرنسيين.

ورداً على ما كتبه هاريسون حول هذه الانتهاكات، قامت السلطات البريطانية بإغلاق صحيفته التي كان أصدرها للتو في مدينة بوسطن الأمريكية، وكان العدد الذي احتوى كتابات هاريسون هو **العدد الأول والأخير** لهذه الصحيفة التي لم تدم لأكثر من اربعة ايام فقط.

بعد ثلاثة عقود تقريبا، وتحديدا في العام ١٧٢١، تعقب الصحفي **جيمس فرانكلين** الاخطاء التي ارتكبتها الكنيسة البروتستانتية في برنامج مكافحة مرض الجدري، وتمكن فرانكلين من خلال كتاباته من وقف هذه الاجراءات، وتحفيز الاهتمام بقطاع الصحة."

وفي عام ١٧٣٥، وجه الصحفي جون بيتر زنغر اتهامات بالفساد الحاكم ولاية نيويورك، وقضى عاما كاملا في السجن قبل أن يقدم للمحاكمة بتهمة التحريض، وخلال المحاكمة، دافع محامي زنغر عن حق الصحفيين في كشف الفساد والانتهاكات بعبارته الشهيرة التي وصفت بأنها تمثل عقيدة الصحفي الاستقصائي طوال قرنين ونصف بعد المحاكمة، وهي ضرورة حماية حرية فضح ومعارضة السلطة التعسفية . .... عن طريق التحدث وكتابة الحقيقة.

وخلال السنوات التي اعقبت تجارب هاريسون وفرانكلين وزنغر، لم تظهر الكثير من التجارب المماثلة لتجربة هؤلاء، وحين كان القرن التاسع عشر يوشك على نهايته، كانت الصحافة الحزبية التي سادت آنذاك هي التي تطغى على المشهد الاعلامي في القارة الامريكية الشمالية واوربا، وكانت في اغلبها تستخدم وسيلة لضرب الخصوم السياسيين من خلال ما تنشره من فضائح او معلومات غير دقيقة.

المنقبون الأوائل

ارتبط مصطلح **المنقبين الاوائل**، بمجموعة من الصحفيين والروائيين الذين برزوا مطلع **القرن العشرين** وتعقبوا الفساد والانتهاكات والممارسات الخاطئة التي ترافقت مع **الثورة الصناعية** وما زال هذا **المصطلح يطلق حتى الان على المحققين الاستقصائيين المعاصرين الذين يتعقبون الفساد والممارسات الخاطئة لفضحها أمام الجمهور.**

فمع انطلاق **العصر التقدمي** تزايدت حدة الانتهاكات والمظالم التي كانت ترتكب بحق (العمال والمزارعين والمهاجرين والطبقات المسحوقة) في المجتمعات الغربية، خصوصا في ظل القوانين التي كانت في اغلبها تحمي حقوق اصحاب المصانع والشركات الاحتكارية النافذة، وهو ما دفع المنقبين الاوائل الى كشف حجم وتسليط الضوء على ما ترافق مع هذا هذه الانتهاكات من ممارسات فاسدة.

وتعقب المنقبون الأوائل العديد من المظاهر التي سادت في ذلك العصر، مثل:

١. فساد الشركات الكبرى.
٢. نظام الاحتكار.
٣. التمييز ضد الأقليات.
٤. انخفاض معايير السلامة والنظافة في صناعة الاغذية،
٥. اجبار الأطفال على العمل لساعات طويلة في المصانع مقابل أجر ضئيل
٦. الفساد في إدارات المدن الرئيسة.
٧. تردي أوضاع المهاجرين الذين كانوا يعيشون في مساكن مكتظة تنتشر فيها الامراض.

وازاء الضغط الذي ولده المنقبون الأوائل على السلطات واثارتهم للرأي العام، وجه الرئيس الامريكي **تيودور روزفلت** نقدا قاسيا للمنقبين الاوائل، ووصفهم في خطابه الشهير عام ١٩٠٦ على المنقبين الاوائل بأنهم (النابش في الوحل).

وبرغم إن تسمية الموكريكرز كانت تهدف الى الحط من شأنهم، إلا أنها تحولت منذ ذلك الوقت الى مبعث فخر لهم ولكل الصحفيين الاستقصائيين الذين أعقبوهم، فقد أثبتت كتاباتهم الحاجة الملحة الى الإصلاحات السياسية وتصحيح المخالفات وتعديل القوانين الظالمة.

ساهمت كتابات المنقبين الاوائل التي نشرتها صحف ومجلات رصينة، أبرزها **مجلة مكلور الامريكية** في صدور مجموعة قوانين مهمة، مثل:

١. قانون الغذاء والدواء، وهو مقياس على معايير السلامة والنظافة في صناعة الأغذية.
٢. قوانين مكافحة الاحتكار.
٣. إدخال ضرائب الدخل على المستوى الفيدرالي لإعادة توزيع الثروة.
٤. تنظيم عمالة الأطفال.
٥. تعويضات العمال والمعاشات التقاعدية.

وخلال المدة التي امتدت من عام ١٩٠٠ ولغاية عام ١٩١٢، كانت حركة المنقبين من القوى الرئيسة التي تحرك المجتمع الغربي، لكنها منذ اواخر العام ١٩١٢، **بدأت بالتراجع**؛ نتيجة الضغوط المالية، وحرمان الصحف والمجلات التي تنشر تحقيقات المنقبين من الاعلانات، فضلا عن التطورات التي شهدها العالم قبيل الحرب العالمية الأولى.

ويصف الامريكي مارك فلدشتاين المدة التي امتدت من نهاية عصر المنقبين وحتى حرب فيتنام في ستينات القرن العشرين، أنها كانت بمثابة (العصور المظلمة) للصحافة الاستقصائية.

فضيحة ووتر غيت

مع مطلع ستينات القرن الماضي، **عادت الصحافة الاستقصائية** الى الواجهة مرة اخرى مستفيدة من ولادة جيل جديد من المنقبين، وتطورات تكنولوجية هائلة شهدها قطاع الاعلام، بما في ذلك تطور تقنيات التصوير والأشرطة المسجلة وانتشار آلات النسخ، فضلا عن سن المزيد من قوانين حرية الاعلام التي كان من أبرزها آنذاك، قانون حرية المعلومات الذي اقره الكونغرس الأمريكي عام ١٩٦٧.

ترافقت مع التطورات الاعلامية، **تطورات اخرى** في المجالات السياسية والعسكرية، خصوصا تلك التي تتعلق بالحرب الباردة والحرب الامريكية في فيتنام وما رافقها من نقص عام في الثقة بالإدارة الأمريكية، وكانت خلاصة تلك المرحلة مجموعة من التحقيقات الاستقصائية التي فضحت سعي الادارة الامريكية للتحول من دولة ديمقراطية، الى دولة سرية.

وكان من أبرز التحقيقات التي أثارت الرأي العام العالمي في نهاية الستينات ومطلع السبعينات من القرن العشرين **ثلاث تحقيقات** وصفت بأنها بداية العصر الجديد للصحافة الاستقصائية، كان في مقدمتها الكشف الذي قدمه المحقق الاستقصائي الامريكي المعروف **سيمور هيرش** حول المذبحة التي ارتكبها الجيش الامريكي في **قرية (ماي لاي) الفيتنامية** في آذار مارس عام ١٩٦٨، والتي راح ضحيتها نحو (٥٠٠) طفل وامرأة وشيخ كبير.

بقيت المذبحة طي الكتمان حتى تمكن هيرش من كشف تفاصيلها في تشرين الثاني نوفمبر عام ١٩٦٩، وسرعان ما ولدت الصور والتفاصيل المتعلقة بالمذبحة ردود فعل غاضبة هزت العالم، وكشفت بشاعة الحرب التي كانت الولايات المتحدة تخوضها آنذاك وسط رفض شعبي واسع".

وفي عام ١٩٧١، حقق الصحفي الامريكي **نيل شاهان** سبقا استقصائيا فريدا في ذلك الوقت تمثل بحصوله على وثائق سرية عرفت لاحقا بـ (أوراق البنتاغون)، وهي تكشف الاخطاء في التقدير التي قادت الادارة الامريكية الى التورط في حرب فيتنام، واثار نشر هذه الاوراق في صحيفة نيويورك تايمز ثم في صحيفة الواشنطن بوست ولاحقا في صحيفة بوسطن غلوب ردود فعل غاضبة لدى الرأي العام الأمريكي.

وفي عام ١٩٧٢، تمكن صحفيان شابان من صحيفة الواشنطن بوست هما **بوب وودوارد وكارل بيرنشتاين** من الكشف عن أشهر فضيحة سياسية في العصر الحديث، وهي: **فضيحة ووترغيت** التي اطاحت بالرئيس الامريكي ريتشارد نيسكون بعد ثبوت تورطه وفريقه الخاص بعملية زرع اجهزة تنصت داخل مقر الحزب الديمقراطي المنافس.

ويصف مؤرخو الصحافة الاستقصائية ما فعله الصحفيان وودوارد وبيرنشتاين من خلال فضيحة ووتر غيت بأنه كان القاعدة التي انطلقت منها كل القوة الدافعة للتحقيقات الاستقصائية التي اعقبتها، وأنها كانت سببا رئيسا في تركيز وسائل الاعلام على هذا النوع من التحقيقات، والسعي الى مأسسة الصحافة الاستقصائية، إذ أنها برهنت على قوة الصحافة الاستقصائية وقدرتها على كشف الفضائح التي ترتكبها اعلى السلطات واكثرها تحصينا ".